Adab Al-Rafidayn

https://ojs.uomosul.edu.iq/index.php/radab

Land Narratives from an Environmental Perspeetive: al _Koniss Bleeding of the stone as Model

Sarwa Younis Ahmed
Department of Arabic Language /
College of Arts/ University of Mosul/ Mosul- Iraq

Article Information

Article History:
Received Nov 06,2025
Revised Dec 17 ,2025
Accepted Jan 05,2026
Available Online Feb. 1, 2026

Keywords:
Narratives,
Land,
Environment,
Novel,
Desert,
Mythologization

Correspondence:
Sarwa Younis Ahmed
sarwa.y.a@uomosul.edu.iq

Abstract

His emotions and sense of belonging since childhood are clearly reflected in most of his novels, where he frequently speaks of this desert world and its components. Earth narratives are among the important topics in Arabic literature in general, and in literary criticism in particular. It is a term within the field of eco-literary studies and the pursuit of sustainable development. In earth narratives, the land or place itself becomes, by its nature, a narrative agent that participates and interacts in the making of the story and influences its dimensions. It becomes a living entity with its own laws, entering the narrative as a meaningful and active character rather than merely a background or decorative setting.

The environment in the novel Bleeding Stone is manifested through the harsh Libyan desert, which represents a fundamental and active setting in which the protagonist, Asouf, is formed. This environment is not merely a backdrop but a complete symbolic system with its own aesthetic and literary characteristics, interwoven with myths and folk beliefs. The novel portrays the desert as a primitive space full of sharp contradictions, carrying within it a deep history and complex interactions between human beings and nature. The novelist was fascinated by the desert space, forming with it an intimate relationship, as it held great significance for him in shaping the individual and his emotions.

DOI:_____, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/.)

سرديات الأرض من منظور بيئي رواية (نزيف الحجر) لإبراهيم الكوني أنموذجًا

سروة يونس احمد *

مستخلص:

سرديات الأرض من الموضوعات المهمة في الأدب العربي عامة والنقدي خاصة، وهو مصطلح ضمن دراسات الأدب البيئي وتحقيق التنمية المستدامة، ففي سرديات الأرض تتحول الأرض/ المكان بطبيعتها إلى فاعل سردي يشارك ويتفاعل في صناعة القصة ويؤثر في مجالاتها، وتصبح كائنًا حيًّا له قوانينه، فهي تدخل في السرد مثل شخصية لها معنى ودور فتمثلت كونها فاعلًا سرديًّا حيًّا وليس مجرد خلفية أو ديكور، تتجلى البيئة في رواية "نزيف الحجر" في الصحراء الليبية القاسية التي تمثل مكانًا أساسيًّا وفاعلًا يتشكل فيه بطل الرواية، هذه البيئة ليست مجرد خلفية، بل هي نظام رمزي متكامل له خصائصه الجمالية والأدبية التي تتداخل مع الأساطير والمعتقدات الشعبية. تُصور الرواية الصحراء كمكان بدائي يجمع بين التناقضات الحادة، ويحمل في طياته تاريخًا عميقًا وتفاعلات معقدة بين الإنسان

* قسم االلغة العربية /كلية الاداب/جامعة الموصل- العراق

والطبيعة .فقد كان الروائي مهووسًا بالفضاء الصحراوي؛ إذ نشأت معه علاقة حميمية؛ لأنه يمثل عنده أهمية قصوى في تشكل الفرد وأحاسيسه. وانفعالاته منذ الطفولة. فهذا الانتماء منذ ولادته نجده في معظم رواياته؛ إذ يتحدث عن هذا العالم.

الكلمات المفتاحية: السرديات، الأرض، البيئة، الرواية، الصحراء، الأسطرة

المقدمة

الأرض/ المكان هي الوجود والكيان، وفيه يشعر بالسكينة والأمان، ويظهر جليًّا في إبداعاته الأدبية والتشكيلية والفوتوغرافية، وتتنوع هذه الأمكنة بتنوع التضاريس بين السهل والهضاب والجبل والصحراء، فلا يمكن ذكر الإنسان من دون ذكر المكان، وتعد الصحراء من بين تلك الأمكنة التي حظيت باهتمام الأدباء والنقاد والعرب منذ القديم، لارتباطهم بها روحيًّا ووجدانيًّا، لكونها موطنهم الأصلي، فالصحراء حظيت بأهمية كبيرة بالنسبة للأدب العربي القديم والحديث، لأنها موطن الأدب الجاهلي وأرض الرسالات.

ويعد الروائي (إبراهيم الكوني) من بين أهم الروائيين العرب الذين تمكنوا من توظيف (الصحراء) في أعمالهم السردية بطريقة فنية مميزة، بحكم أنه عاش في الصحراء وخبر اسرارها.

اعتمدت الدراسة المنظور البيئي أي المسار البيئي متقصيةً الجوانب المعرفية والبيئة وقضاياها في الرواية محاولين كشف الجوانب الجمالية والفنية في تتبع للسرد الأدبي داخلها، فمصطلحات سرديات الأرض / البيئة / المكان البيئي / الصحراء، هي بحد ذاتها تخط خطتها لتأسيس وتحليل سرديات الأر ض من هذا المنظور بأفكارها ومضمونها وتعمل على معالجة مشكلة بيئة ورفع الوعي فيها، جاءت الدراسة على مباحث احتوت كل ما يتعلق بسرديات الأرض والبيئة.

ملخص الرواية:

رواية (نزيف الحجر) للكاتب الليبي إبراهيم الكوني نشرت عام 1990 وأعيد نشرها عام 1993دار النشر المصرية اللبنانية، تتناول القضايا البيئية والحياة الصحراوية وقوة الروح البشرية، وتتحدث عن الأسطورة الصحراوية، وفكرة الصراع بين الخير والشر.

يفتتح الكوني عمله بآية قرآنية (وما من دابة في الأرض وطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)، (سورة الانعام الآية 38) وبعده يتبع باقتباس من العهد القديم يدور حول قتل قابيل أخاه هابيل، ومن ثم يهيئ القارئ في هذه الافتتاحية لتلقي الحكاية المحورية في الرواية؛ إذ ينبأ الاقتباسان إلى التماثل القائم بين عالمي الحيوان والإنسان وعوالم أخرى، وإلى ما يجره قتل الإنسان أخاه الانسان من جدب وقفر وفقر في البيئة، وهو يشير إلى ما يحدث في المكان الصحراوي والذي تدور فيه الأحداث ويعتمل الصراع في جو أسطوري يشهد فيه تمثال (الكاهن والودان) على تراجيديا الدم الذي يخصب الصحراء ويجري الماء والعشب في عروقها.

تقوم الحكاية في نزيف الحجر على العلاقة وسرها بين الشخصية الرئيسة والمحورية (اسوف) و(الودان) وهو (تيس جبلي حسب ما ورد في الرواية أنه انقرض في أوروبا منذ القرن السابع عشر ولكنه ظل موجودا في الصحراء الكبرى)[1]، يعطي الكاتب غموضًا حول هذا الحيوان الذي يقول عنه (اسوف) إنه (روح الجبل)، فهو يعتصم بالجبل إذا طورد وفي لحمه يكمن سر من أسرار الوجود، كما يقول شيوخ الصوفية، تقوم بين (اسوف) و (الودان) علاقة سرية معقدة يحلُّ فيه الودان في جسد (اسوف)، ويرى فيه الأخير ابنه الذي صرعه الودان لأنه لم يحافظ على نذره بعدم صيد الودان، وعندما يجز قابيل رأس (اسوف) وهو مصلوب على تمثال الكاهن والودان، يمتص جسد الودان دم الإنسان ويهطل المطر على جسد الصحراء العطشان، كل ذلك يحدث في مسرح الأحداث بمكان موحش منعزل يكتشفه الراعي اسوف في الصحراء.

أهداف البحث ومشكلاته:

تحليل تمثيلات الأرض والبيئة في الرواية، والكشف عن البناء السردي الذي يعكس الوعي والقصد البيئي، ودراسة وكشف العلاقة بين الانسان والمكان في النص الروائي، وإبراز دور الأدب في تشكيل خطاب بيئي عربي يواكب ما يحصل من تطورات وتغيرات في الخطاب الأدبي ولا سيما الرواية.

1_ المبحث الأول

السرديات البيئية:

[1] نزيف الحجر: 8

السرديات البيئية محاولة للدخول إلى تحليل الخطاب الأدبي والتي توظف البيئة استنادًا لآليات جامعة بين النقد البيئي وتحليل التقنيات السردية، فالفرق بين السرديات البيئية والنقد البيئي أن الأولى تعنى بالاستعانة بالتقنيات السردية عند التحليل، بينما النقد البيئي يخلو منها[1]

فالمنجز في سرديات الأرض دعا إلى المحافظة على البيئة، بناء على افتراض أن الرواية تحمل وعيًا بيئيًّا يحاول إقناع المتلقي بأهمية البيئة؛ بما انها تقدم العلاقة بين الإنسان والبيئة والإعلاء من القيم البيئية ولا سيما عند كاتبنا ودفاعه المستميت عن الصحراء.

فالسرديات مصطلح يشير إلى مجموعة من النصوص الأدبية التي تتخذ من السرد أسلوبًا وطريقة في تقديم مادتها، والسرد هو (فعل يقوم به الراوي الذي ينتج القصة، وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب، ويشمل السرد على سبيل التوسع، مجمل الظروف المكانية والزمانية والواقعية والخيالية التي تحيط به)[2] كما يطلق على (صيغة من صيغ الخطاب وظيفتها وصف سير الحدث كفعل في زمن[3] وهناك استعمالا آخر لمفهوم السرديات، ويقصد بها علم السرد، وعلم السرد هو (دراسة القص واستنباط الأسس التي تقوم عليها وما يتعلق بذلك من نظم تحكم إنتاجه)[4] فهو يعنى بدراسة السرد وأنواعه وإجراءاته ومعطياته وكل ما يتعلق به؛ إذ رأينا أن سرديات الأرض تدرس وتحلل كل ما يتعلق بنسيج القص من نظم.

وفي سرديات الأرض قدم الكاتب فهمًا في كيف يعبر الأدب عن القضايا البيئية بأسلوب سردي مشوق، تحمل دلالة بيئية واستدامة واضحة انعكست في اختيار المصطلح فالأرض (تعد عنصرًا من العناصر الأساسية للمكون الحضاري، يضاف إلى هذه المعادلة الإنسان الذي يخدم الأرض، والزمن كفيل بربط صلة الإنسان بأرضه، فهي تمثل هويته ووطنه)[5]

ومن هذا فالصحراء لها علاقة بالشخصيات في البنية السردية بوصفها هويتهم ووعاء لتخزين تراثهم ومنبعًا لحدس ثقافتهم؛ إذ تعد المحور التي تتمركز حولها الموضوعات الشاملة في الرواية فالأرض في النص الروائي مشحونة بمرجعيات ثقافية وتاريخية وتخيلية ورمزية والاحتمالية حسب طبيعة تكوينها وكل أرض تشكلت حسب منظور معين حضاري أو تجاري أو عسكري.

فالأرض مصدر الحياة والرزق والموطن والبعث والمآل؛ لهذا انعكس ذلك على كتاب الرواية وظهرت الأرض في السرديات الروائية.

فـ (سرديات الأرض) تشير إلى تلك الحكايات التي تضع العالم غير البشري في قلب الخطاب السردي، وهي تنتمي لحقل النقد الإيكولوجي الذي يدرس العلاقة بين الأدب والبيئة المادية.

مفهوم البيئة:

البيئة مأخوذة من المصدر الثلاثي (باء) ومضارعه (يبوء) وباء أي رجع، وبوأ المنزل أي أكده وتبوأ منزلا نزله، وبوأه هيئه ومكن له فيه، وقد حدد ابن منظور في اللسان التبوء بمعنى إصلاح المكان هيأه وبمعنى النزول والإقامة، أي نزل وأقام فيه. لسان العرب ابن منظور، من هذا نرى أن البيئة من حيث اللغة هو المنزل أو المكان الذي يعيش فيه الكائن الحي.

اصطلاحا: البيئة هي (كل الأشياء التي تحيط بنا وتأثر على وجود الكائنات الحية على سطح الأرض متضمنة الماء، الهواء، التربة، المعادن، المناخ، والكائنات أنفسهم، كما يمكن وصفها بأنها مجموعة من الأنظمة المتشابكة مع بعضها البعض لدرجة التعقيد والتي تأثر وتحدد بقائها في هذا العالم الصغير والتي تتعامل معها بشكل يدوي)[6]

كما تعرف بأنها (العوامل الخارجية التي يستجيب لها الفرد أو المجتمع بأسره استجابة فعلية احتمالية كالعوامل الجغرافية والمناخية من سطح ونبات وموجودات وحرارة ورطوبة، والعوامل الثقافية والاجتماعية التي تسود المجتمع والتي تؤثر في حياة الفرد وتشكلها وتطبعها بطابع معين)[7] فهي الوسط الذي نعيش فيه تؤثر وتتأثر بفعل من حولها فهي (الوسط الطبيعي الذي يشمل العناصر الطبيعية من ماء وهواء وتربة وبحار وغيره، والوسط الصناعي المشيد بفعل الانسان كالأثار والمواقع السياحية والتراث الفني والمعماري والمنشآت الصناعية وغيرها)[8]

---

[1] ينظر: بلاغة العواطف والسرديات البيئية، قراءة في بدايات الخطاب الروائي العربي، ضمن كتاب السرديات البيئية نحو نقد بيئي للرواية العربية: عبد الحق بلعابد، دار الوتد للكتب،2024: 23

[2] معجم مصطلحات نقد الرواية: لطيف زيتوني، عربي إنكليزي، دار النهار للنشر، لبنان ناشرون 2002: 102

[3] المصدر نفسه: 105

[4] إضاءة لأكثر من سبعين مصطلحا نقديا معاصرا، دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت 2002: 174

[5] صورة الأرض في رواية حلواجي مريم لجبالي انيسة: 18 الرواية العربية والأرض دار نشرتي للنشر الإلكتروني 2005: 1

[6] محاسبة التلوث البيئي، إبراهيم جابر السيد، دار غينا للنشر والتوزيع، عمان، 2014: 196

[7] البيئة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع والبيئة، حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2006:86

[8] المصدر نفسه: 113

وكل التعريفات والمفاهيم تشير إلى توجه واحد بأنها ذلك الحيز الذي يمارس فيه البشر مختلف أنشطة حياتهم، ويشمل هذا الإطار الكائنات الحية كافة من حيوان، نبات، إنسان، وتستمر علاقة الإنسان بالبيئة المحيطة، ولو رجعنا إلى التراث العربي في الأدب لوجدنا أن البيئة تشكل مرتكزًا واضحًا في الأدب ولعل ظواهرها متعددة في هذا الأدب ولا سيما الشعر وتعد تجسيدًا واضحًا للبيئة المكانية وحضور البيئة بمعناها الواسع في أدبنا فانعكس على النقد الأدبي[1]، وهذا ما يؤكد أثر البيئة في الأدب .

المبحث الثاني

تمثلات البيئة في رواية (نزيف الحجر):

أولًا: المكان الصحراوي كائنا حيا:

تصل علاقة الإنسان المتمثل بـ (اسوف) بالصحراء إلى درجة الحلول والتوحد التام. فالبطل لا يعيش في الصحراء فحسب، بل يحيا فيها وتحيا فيه، وهو ما يتجلى في علاقته السرية المعقدة بحيوان "الودان"؛ إذ (يحل الودان في جسد أسوف ويرى فيه الأخير أباه)[2]، هذه العلاقة تجسيد لأسطورة الخصب التي (توحّد بين عالمي الحيوان والإنسان) يربط الكوني بين جفاف الصحراء وخطيئة الإنسان ضد الطبيعة. فقتل "الودان" -الحيوان المقدس- يمثل "الخطيئة البيئية الكبرى" التي تؤدي إلى اللعنة والجدب، وهذا الفعل يستدعي "لعنة قابيل" التي ترمز إلى الصراع الأبدي بين الجشع الإنساني والظاهرة الطبيعية.

الخلاص والمعجزة: يشير عنوان الرواية «نزيف الحجر» إلى فكرة الخلاص بالمعجزة. فـ "نزيف الحجر" هو إشارة رمزية إلى استحالة الخلاص إلَّا بحدوث أمرٍ خارق للعادة، وهو سيلان الدم من الحجر الأصم، إيذانًا بغسل الخطيئة وإزالة اللعنة. في النهاية، عندما يقتل "قابيل" أخاه "أسوف" على الصخرة، يهطل المطر وتتصالح الصحراء الجبلية مع الصحراء الرملية، محققة نبوءة الخصب التي تفترض التضحية كشرط للعطاء، و(كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية، وكانت آلهة السماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار، وتفصل بين الفريقين وتهدئ من جذوة العداوة بينهما، وما إن تغادر الآلهة ساحة لمعركة حتى تشتعل الحرب بين العدوين)[3]، العنوان (نزيف الحجر) الحضور البيئي للمكان ككائن حي يتجلى منذ العتبة الأولى للرواية، عبر التجسيد والتشخيص للصحراء، فنزيف الحجر إنسان / مكان يتوحدان هنا في صورة مروعة كبيرة في وصف انتهاك البيئة وثورتها على من حولها (العنوان مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي)[4] فالعنوان يحيل إلى النص ويحدد هوية الإبداع ويحمل دلالات النص المتعددة[5]

ويمثل هذا المقطع العتبة الأساسية للرؤية البيئية في الرواية ؛فالجفاف لا يُصوَّر كظاهرة طبيعية محايدة، بل كرد فعل عضوي وأخلاقي للأرض على انتهاك الإنسان لها، ونزف الحجر... نزف الماء من قلب الصخر الجاف، نزف الدم من قلب الصحراء القاحلة. كان علامة على الغضب، وأن الأرض قد تألمت فانسحبت هباتها ،التجسيد والأنسنة حول الأرض (الحجر) إلى كائن حي ينزف، (النزيف) هو استعارة درامية لعقاب بيئي جماعي، الأرض الكائن المتألم: عبارة (الأرض قد تألمت) ترفض المنظور البشري المحض، وتؤسس لفكرة أن الطبيعة كائن يشعر ويتفاعل؛ مما يرفع من مكانتها الأخلاقية.

العقد البيئي المقدس (انسحبت هباتها) تشير إلى علاقة عطاء مشروطة بالاحترام. انتهاك العقد (قتل الوعل) يؤدي إلى انسحاب البركة، وهي رؤية بيئية قائمة على العقاب والثواب، وهنا نرى العلاقة الجدلية العميقة القائمة بين الإنسان والأرض

استخدم الكوني لغة شعرية موحية لتعزيز حيوية المكان فلم يكتف بالوصف البصري بل تجاوزه إلى الحواس الأخرى؛ ففي مشهد بحث أسوف عن والده: (خيّل إليه أنَّ رائحة غريبة غزت أنفه، فجأة قفز قلبه واستولى عليه الغثيان والصداع.. ازدادت الصخور ارتفاعًا وحِدَّة وسوادًا، كلما اقترب من القمّة...)[6] كما أن عبارات مثل: (الصحراء كنز، مكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبد وأذى العباد، فيها الهناء، فيها الفناء، فيها المراد)[7]، تختزل رؤية عميقة للصحراء بجملة من التناقضات التي تمنحها روحًا وكينونة مستقلة.

يصور الكوني الصحراء عبر عناصرها المكونة لها التي تتفاعل كأعضاء في جسد حيّ:

[1] أهمية النقد الادبي في الدراسات النقدية، محمد أبو الفضل بدران المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية: ص 195.
[2] الرواية: 75
[3] الرواية: 26
[4] النص الموازي للرواية، استراتيجية العنوان، د. شعيب حليفي، مجلة الكرمل، العدد (46)، 1998: 85،84
[5] ينظر مقالات نقدية في الرواية العربية، د. موسى اغربي، دار نشر الجسور، وجدة، ط1، 1997: 6،5
[6] الرواية: 23
[7] الرواية: 24

1. الواحة: تمثل الواحة في الرواية شريان الحياة والخلاص من الموت، لكنها في الوقت ذاته تمثل الأسر وفقدان الحرية. فبعد جفاف الصحراء، يضطر (أسوف) إلى النزول إلى الواحة، لكنه يُعتقل فور وصوله: (وضعوا القيد في يديه وساقوه إلى الحامية الإيطالية على المرتفع)[1]. وهكذا تتحول الواحة من رمز للحياة إلى مكان للقيد، مما يعكس الطبيعة المزدوجة للصحراء بين العطاء والمنع.

2. الرمال: تتحول الرمال من كونها مادة صماء إلى شاهد على الأحداث وحافظ للأسرار. فبعد مقتل والد أسوف، (تتبع آثار المعركة على طول الوادي فوجد بقع دم لوثت الأحجار وسقطت قطرات متباعدة على الرمل في قلب الوادي)[2]. كما يميز الكوني بين نوعين من الصحراء: الصحراء الرملية الرفيقة بالعباد، والصحراء الجبلية الغاضبة التي تمثل العراقيل والعقبات وذكرناها سابقا

3. الكهوف: تمثل الكهوف الملجأ الآمن والموئل الذي يحمي من قسوة الطبيعة، كما أنها تحمل قداسة الماضي وأسرار الأجداد. كانت الكهوف مسكنًا لأسوف وأسرته: (استطاع -أسوف- أن يحشر الأغنام في الكهف الكبير قبل أن يصل الزوار)[3]. وهي أيضًا بمثابة متحف طبيعي يحفظ تاريخ الإنسان البدائي من النقوش والرسومات على جدرانها.

4. الشعاب والوديان: تظهر الوديان على أنها شريان الحياة الذي يوفر الكلأ والعشب، لكنها أيضًا مصدر للخطر والموت بسبب السيول الجارفة. يصفها الكوني بأنها (جنة للرعاة) لكنها أيضًا مكان (يتربص به الجن). هذه الثنائية (العطاء/الخطر) تؤكد أن الصحراء كائن حي له طباع متقلبة، (فالإنسان في الصحراء لا بدَّ أن يموت بأحد النقيضين: السيل أو العطش)[4].

أما الحجر فيشكل رمزية في رواية «نزيف الحجر» لإبراهيم الكوني قلب الرؤية الفلسفية للرواية وعنوانها المجازي الأبرز. الحجر ليس جمادًا، بل هو كائن شاهد، ضحية، وجلاد في آن واحد، وهو وعاء للأسرار واللعنة والتكفير، الحجر كجزء من الأرض شكل أيضًا فاعلًا حيا ينزف يتفاعل مع البيئة في كل أحوالها عند الكوني.

الحجر كشاهد صامت على التاريخ والجريمة:

الحجر هو الذاكرة الحافظة للصحراء، يسجل الأحداث ولا يمحوها. إنه الشاهد الأزلي على جرائم الإنسان.، فعند بحث (أسوف) عن آثار والده بعد المعركة على طول الوادي فهنا الحجر هو أول شاهد على الجريمة بقع الدم التي (لوثت) الأحجار لا تزول بسهولة، مما يشير إلى أن الجريمة قد دنست الطبيعة نفسها، والحجر يحمل هذه العلامة كدليل إدانة.

الكهوف والصخور هي ملاذات حية آمنة ومقدسة، تحمي الأرواح وتختزن تاريخ الأسلاف، (كان الكهف الكبير مسكنهم... على جدرانه نقوش ورسوم لظباء ووعول ورعاة رافعين أياديهم في وضعية صلاة)[5]. الحجر (في شكل كهف) هنا ليس مجرد مأوى، بل هو معبد بدائي ونقطة اتصال بين الإنسان والسماء (وضعية الصلاة). النقوش على الحجر هي شهادة على قداسة هذا المكان وارتباطه بالعبادة والروحانيات.

الحجر كأداة للقدر والموت:

في أكثر تجلياته قسوة، يظهر الحجر كأداة قاتلة، يجسد القسوة المحايدة للصحراء.

ففي وصف الصحراء القاتلة فالإنسان في الصحراء لا بدَّ أن يموت بأحد النقيضين: السيل أو الحجر (في إشارة إلى العطش أو القتل بالحجارة). الحجر هنا هو تجسيد للقدر القاسي. إنه أحد وجهي الموت في الصحراء، ليس ككائن غاضب، بل كحقيقة طبيعية صارخة لا يمكن الفكاك منها.

الحجر ضحية نزيف الحجر (قلب الرمزية)

هذه هي الذروة الرمزية في الرواية. (نزيف الحجر) هو الصورة التي تتوج المأساة وتشير إلى انزياح العالم عن مدارسه الطبيعية.

فكرة أن (ينزف الحجر) هي فكرة مستحيلة في المنطق الطبيعي. هذا الاستحالة هي جوهر الرسالة؛ عندما ينزف الجماد، فهذا يعني أن النظام الكوني قد انقلب رأسًا على عقب بسبب فظاعة الجريمة. جريمة قتل (أسوف) على يد أخيه (جريمة قابيل الجديدة) هي جريمة ضد الطبيعة نفسها، تجعل الطاهرة تنزف.

[1] الرواية: 83
[2] الرواية: 33
[3] الرواية: 17
[4] الرواية: 79
[5] الرواية: 7

التضحية الكبرى نزيف الحجر هو إشارة إلى التضحية القصوى التي يجب أن تقدم لرفع اللعنة دم (أسوف) الطاهر الذي يسيل على الحجر هو التضحية التي تطلبها الصحراء (الكائن الحي) للتكفير عن خطيئة قتل (الودان) المقدس سابقًا.

العنوان نفسه يحمل تناقضًا، الخلاص (الماء/ الدم) يأتي من أكثر العناصر جفافًا (الحجر). هذا يعني أن الخلاص لن يأتي بالطرق التقليدية، بل يحتاج إلى معجزة، إلى انزياح عن المألوف؛ عندما يُقتل أسوف على الصخرة (وسمع لصخرة تحت جسده أنينًا خافتًا... ثم بدأ الدم يسيل من تحته... وفيما هو كذلك سمع هدير الرعد ورأى برقًا يلمع في السماء... ثم انهمر المطر)[1]

هنا تتحقق النبوءة. أنين الصخرة يؤكد حيويتها، وسيلان الدم منها هو الإيذان بغسل الخطيئة. الدم الذي ينزف من الحجر (الضحية/ الشاهد) هو الذي يفتح السماء ويجلب المطر (الخلاص)، (إن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان)[2] محققًا المصالحة بين الصحراء الجبلية (الغاضبة) والصحراء الرملية (العطشى).

هذه الرمزية تجعل من الحجر المحور الذي تدور حوله ثنائيات: القداسة/ الدناسة، الموت/ الحياة، الجماد/ الحي. إن نزيفه هو الشهادة النهائية على أن الصحراء كائن حي، يؤلمه جرح الإنسان، وينزف عندما تصل الخطيئة إلى ذروتها، ويُمنح الخلاص فقط عندما تقدم التضحية التي تلامس عالم المعجزة، وهنا يتجسد ما أراد إبراهيم الكوني تقديمه بأن الصحراء وما فيها كائن حيّ وتحولت إلى شخصية مع الحجر وكل البيئة من حولها.

ثانيًا: الأرض بوصفها ذاكرة:

إن تصوير الأرض بوصفها (ذاكرة) في رواية (نزيف الحجر) لإبراهيم الكوني هو أحد الركائز الأساسية التي تمنح العالم الروائي عمقه الأسطوري والوجودي. الأرض ليست مكانًا للأحداث فحسب، بل هي أرشيف حي، يسجل وينقش عليه تاريخ البشر والطبيعة، ويحفظ ذاكرة الجرائم والمواثيق فالذاكرة (تتحول من كونها عملية استرجاع لحدث مضى في زمن سابق أو كونها انعكاسًا للواقع الحالي إلى فضاء واسع متعدد الدلالات لقاء الزمن الماضي والزمن المعيش، واستيعاب الزمن القادم الذي يخطط المبدع إيصال فكرته نحوه وخلق عالم جديد أو واقع أفضل)[3]

تخزن الأرض في طبقاتها وكهوفها ذاكرة الأزمنة السحيقة، وتكون بمثابة متحف مفتوح، النص (على جدران الكهف نقوش ورسوم لظباء ووعول ورعاة رافعين أياديهم في وضعية صلاة... كانت تلك الرسوم شاهدة على أن إنسانًا قديمًا كان يسكن هذه الصحراء)[4] هنا جدار الكهف (جزء من الأرض) هو أول "قرطاس" كتب عليه الإنسان تاريخه. النقوش ليست مجرد زخارف، بل هي سجل بصري يحكي قصة التعايش والعبادة، مما يجعل الأرض شاهدًا على حياة بشرية اندثرت، لكن ذاكرتها لم تمح.

الأرض لا تنسى. فهي تحتفظ بالآثار التي تخلفها الجرائم، وتصبح دليلًا صامتًا لا يُمحى، فعبارة "بقع دم لوثت الأحجار" قوية الدلالة. فالأرض (المتمثلة في الأحجار والرمل) لا تسجل الحدث فحسب، بل تظهر عليه علامات "التلوث". الدم يلوث الحجر، مما يعني أن الجريمة قد دنست الذاكرة نفسها. الأرض هنا تتحول من شاهد محايد إلى ضحية تحمل ندوب الجريمة وتتذكر الأرض وعودها ومواثيقها. الجغرافيا نفسها (الجبال، الوديان) هي جزء من هذه الذاكرة الجماعية. "كان الجبل يعرف. والوادي يعرف. والرمال تعرف أن ثمة سرًا يربط بين مصير الأسرة وتلك الكائنات." (في إشارة إلى علاقتهم بالودان)، هذه العبارة تمنح الأرض وعيًا. فـ "المكان" بكل مكوناته (جبل، وادي، رمال) ليس جمادًا، بل هو شريك في معرفة السر، ذاكرة الأرض هنا هي ذاكرة مترابطة مع مصير الشخصيات، فهي تحفظ العهود القديمة بين الإنسان والطبيعة.

تقدم الأرض نفسها كلوح تُقرأ عليه إشارات المستقبل والمصير. الذاكرة هنا ليست للماضي فقط، بل هي نبوءة للمستقبل، (ورأى في الحلم صخرة كبيرة تنزف دمًا... وكانت الرؤيا تُراوده كلما اقترب من الجبل)[5]

حلم (نزيف الحجر) هو رسالة من ذاكرة الأرض الجماعية. الأرض (متمثلة في الصخرة) تتواصل مع البطل عبر الرموز (الحلم) لتتنبأ بالمصير. هذه الرؤيا هي جزء من ذاكرة مقدسة، أو "أسطورة مستقبلية" محفورة في وعي المكان.

(ذاكرة الأرض) هي التي تشكل هوية من يسكنونها. هم جزء من ذاكرتها وهي جزء من ذاكرتهم، (قال الأب لأسوف: لن نفعل ذلك أبدًا... إنه قانون الصحراء. من قتل ودًّا.. لعنته الأرض إلى الأبد)[1]

---

[1] الرواية: 107
[2] الرواية: 147
[3] دلالة الذاكرة في النص الروائي، قراءة في علامية الزمن الماضي، علاء جبر محمد، مجلة الموقف الادبي، العدد (675)، دمشق، 2002، 60
[4] الرواية: 7
[5] الرواية: 24

(لعنة الأرض) هي أقسى أشكال الذاكرة العقابية. الأرض لا تنسى الخطيئة، وتصدر حكمها (اللعنة) الأسطورة الذي ينتقل عبر الأجيال. ذاكرة الأرض هنا هي التي تحدد الأخلاق والمصير، وتشكل الهوية الجمعية للقبيلة وقانونها الأخلاقي.

بهذا، تتحول الصحراء من فضاء جغرافي إلى كائن حي يمتلك ذاكرة حية، تكون فيها الحجارة صفحات، والدماء أحبارًا، والجبال حراسًا لتلك الذاكرة الأبدية. هذا التصوير يجعل من (نزيف الحجر) استعارة مادية لانفجار هذه الذاكرة المكبوتة ونزيفها، لأن الجريمة قد أصبحت أكبر من أن تحتمل.

ثالثًا: أسطرة المكان/ الصحراء:

يعمل إبراهيم الكوني على أسطرة الواقع في رواياته ولاسيما التي كتبها عن الصحراء، فيدمج سرده مع الحكايات والاسطورة والخرافة وكل المعتقدات القبلية والدينية وحتى البيئية في الصحراء، يدرجها في سياقات السرد في عالم يميزه عن بقية العوالم الروائية، يظهر صراع دائم مع المجهول والعزلة والفناء ومع عوالم أخرى كالحيوانات والجان

فالصحراء كما نعرف تستأثر باهتمام الكوني الكبير في عالمه الروائي، كل ما فيها نجده في بناء سرده، شخصيات وأحداث ولغة، يتواصل الكوني مع كل ما موجود في البيئة (تجتمع حول محور أساس يتمثل في العلاقة الغامضة بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان المتوحد والحيوان)[2]، يطلق عليها عبد الله إبراهيم (ميثولوجيا الطوارق) فهو يقول (لو رتبت هذه الأساطير وفق انساق محددة لشكلت مجموعة ما يمكن الاصطلاح عليه ب(ميثولوجيا الطوارق): ميثولوجيا متنوعة العناصر ثبتوا فيها الإنسان بهمومه وحيرته وتطلعاته، ذلك الذي لا يجد أنيسا فيختار مضطرا الحيوان رفيقًا له، يبثه لواعجه وعزلته، ثمة تساوق مثير للانتباه في مستوى القيمة الممنوحة للحيوان والإنسان في روايات الكوني)[3]

وفي رواية نزيف الحجر نرى هذا ظاهرًا في سرد الكوني ومنذ بدايتها يشير إلى المكان المتفرد والمنعزل والموحش، وتظهر وسط ذلك شخصية (اسوف) الشخصية الرئيسة، الراعي البسيط وسط هذه الصحراء المقفرة والكهوف كانت هي مأواه، عاش حياته تائها منعزلًا مع الحيوانات في هذه الصحراء أصبح واحدًا من احجارها وصخورها ورمالها وجبالها، يندمج مع المكان ويتماهى معه فيصبح شبيهًا به، يرتبط بالهلاك والموت الذي يلف الصحراء، هذه الشخصية الرئيسة (اسوف) يرعى مع قطيعه ويتهيأ للصلاة مستغرقا في عزلته وصلاته أقرب إلى الصوفية هائم لم يعِ أنه في صلاته يتجه إلى الصخرة وليس إلى القبلة (لم يدر أسوف أنه أخطأ الاتجاه فلم يوجه ركعاته نحو الكعبة، وإنما نحو الصنم الحجري المنتصب فوق رأسه في قعر الوادي العميق)[4]

الصنم الحجري هو الصخرة التي تنزف عند ذبح الودان الأسطورة المركز التي انطلقت منها الرواية (هذه الصخرة الكبيرة تقع في نهاية سلسلة الكهوف بحجر الزاوية لتواجه الصحراء القاسية عبر آلاف السنين وقد زينت بإبداع رسوم إنسان ما قبل التاريخ، وعى طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى (الودان) هذا الكائن الأسطوري، الذي يقف بجواره شامخا يرفع رأسه مثله مثل الكاهن نحو الأمام والأمل القادم حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجهها كل يوم)[5] نزيف الحجر هي نبوءة أو أسطورة داخل النص مفادها أن الخلاص من لعنة الخطيئة (التي يمثلها صيد الودان) لن يتحقق إلَّا عندما (ينزف الحجر) في النهاية وعندما يقتل البطل (اسوف) دفاعًا عن الودان، يسيل دمه على الصخرة في مشهد رمزي يشبه الفداء غاسلًا خطيئة الاعتداء على الطبيعة وكاسرا اللعنة فالصخرة هي وسيلة اتصال بين عالم البشر والجن ومسرح الحدث الرئيس، ونقطة التحول ورمز الخلاص عبر هذا النزيف

بهذا الوصف الطقسي البيئي يختزل الكوني عبر الكاهن والودان تاريخ الصحراء ،ويعودان به إلى مطلع أول شمس لبداية العالم، وتشير صخرة متخندروش إلى زمن البدايات السعيدة، زمن الأسلاف الأوائل، أسطورة الولادة الكونية الأولى ويمتزج بشخوصها، وفي المكان نرى السارد يضعنا في عالم غريب وعجيب (عالم يستعيد من خلاله البدوي مجد اسلافه الاسطوريين في الصحراء القاحلة، وبهذه الاستعادة الوهمية يعود إلى زمن الأوائل التي يعده بالخلود والرخاء، إن الجنة هي الفردوس الخفي الذي يهبه له الجن والاسلاف الاسطوريين إنقاذا له من وحشة الصحراء وموتها المرير، إذ يهدي أرواح الأسلاف المكنونة في الجن أحفادهم العائدين إلى مشهد القرابة العائلية (جنة) وهمية حلمية وفردوسا مفقودا يعيدهم إلى لحظة البراءة الأصلية في زمن الخلق الأسطوري، وكأن هذه العودة بعث جديد وميلاد ثان للوليد القديم)[6]

---

[1] الرواية:95

[2] اسطورة الخطيئة في رواية (نزيف الحجر) لإبراهيم الكوني: د. صالح بولعة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خضير، بسكرة، العدد (14): 277

[3] الرواية العربية وتعدد المرجعيات الثقافية: عبد الله، مجلة علامات، العدد (23)، 2005: 4

[4] نزيف الحجر، إبراهيم الكوني، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1992: 13

[5] الرواية: 13

[6] ملحمة الحدود القصوى (المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000: 60

ويذكر السارد أماكن هي جبال، مساك سطفت ومساك ملت، ومناطق تاسيلي، وتامانراست ومدن مثل كيكتو وأغادير وكانو، وتركز حبكة هذه الرواية على نتائج ذلك التمزق في التوازن الكبير بين البشر والطبيعة، وفي هذه الأجواء الأسطورية وفي الوادي (متخندروش) وعند الصخرة العظيمة ثمة أربع شخصيات (اسوف) المتوحد مع المكان وعامل الآثار الإيطالي المستغرق مثله في هذه **الميثولوجيا** السحرية في البحث عن الطفولة البشرية

وتتجاوز العلاقةُ بين البطل (أسوف) والودان علاقةَ الصياد بفريسته إلى علاقة وجودية؛ فهو يرى في الودان (روح الجبل) ويتقمص روحه في طقس صوفي، مما يعكس فلسفة (وحدة الوجود) التي تذوب فيها الفواصل بين الإنسان والطبيعة، هذه العلاقة تمثل حالة من البقاء والانسجام الضائع.

وأما الجن في الرواية فيمثل القوة الغيبية التي تسكن الصحراء وتحرس نظامها، رسوم الودان على الصخور في الوادي تنسب أحيانًا إلى الجن، مما يرفع من شأن الحيوان إلى مرتبة التقديس، وهذا العالم الخفي يضفي على الصحراء بعدًا ميتافيزيقيا، ويجعلها فضاء للأسرار والرهبة لا مجرد مكان جغرافي؛ إذ يتحول (اسوف) في بعض الأحيان إلى حيوان خرافي لاوجود له في الواقع، فيعمد إلى إظهاره كأنه موجود فغلا (هنا في الطريق قبل أن يبلغوا العوينات، حدث ما تناقله الأهالي ونسجوا حوله الأساطير، روى لهم الشاب فقالوا إنهم رأوا المعجزة لأول مرة في حياتهم، شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر ويتحول إلى ودان، يعدو نحو الجبل يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كل جانب، فهل رأيتم انسانا يتحول إلى ودان ؟ هل رأيتم إنسانا ينجو من رصاص الطليان وهو يجري على قدمين حتى يختفي في ظلمات الجبال؟)[1] فالرواية تضع المتلقي أو القارئ في وضع محكوم بالحيرة والخوف والتشويق؛ لأنها تصور غريب لما قد يحدث بين عالم الإنس وعالم الحيوان أي أننا نتجاوز ما هو طبيعي إلى ما هو فوق طبيعي أو ثنائية جدلية للطبيعي وما بعد ميتافيزيقي[2]

الخاتمة

1_ إن رواية نزيف الحجر هي أكثر من رواية، هي بيان بيئي مكثف يدعو إلى إحياء العلاقة الروحية مع الأرض، واصفة أن أي حل للأزمة البيئية يجب أن ينبع من القلب والوعي قبل أن يكون في القوانين والتقنيات

2_ إن الحدث المركزي في نزيف الحجر هو استعارة مروعة للجفاف، حيث تتحول الأرض من كائن يمنح الحياة إلى كائن ينزف موته، مما يعكس العاقبة الكارثية لانتهاك التوازن البيئي

3_ الحيوان هو البطل وليس حيوانًا عاديًّا بل هو كائن أسطوري حكيم وله حضور طاغ يفوق حضور معظم الشخصيات البشرية فهو رمز للطهارة والقداسة التي يجب أن تحترم

4_ الأرض هي الفاعل الرئيس فالصحراء ليست سلبية؛ إنها تمنح وتمنع تكافئ وتعاقب، الحجر فيها ينطق ليس جمادًا ينطق وينزف دمًا هو ماء وحياة للأرض فهي كالروح لها وعليه فيجب على الإنسان أن يكون ابنًا بارًا بها وإذا كان معتديًا يدفع ثمن انتهاكه بنزيف الحجر والروح

5_ أسطرة المكان في الرواية هي تقنية سردية اعتمدها الراوي جعلت من الصحراء كونًا روائيًّا حيًّا تتجاوز فيه الجغرافية والتاريخ والاسطورة مع الواقع لتقدم رؤية وجودية عن صراع الإنسان مع قوى الطبيعة والشر

References

1 The Myth of Sin in Ibrahim al-Koni’s Novel “Bleeding of the Stone”: Dr. Saleh Boulaa, Journal of the Faculty of Arts and Humanities, Mohamed Khider University, Biskra, Issue (14

2 Illumination of More Than Seventy Contemporary Critical Terms, A Guide for the Literary Critic, Mijān al-Ruwaili & Sa‘d al-Bāz‘i, Arab Cultural Center, Casablanca–Beirut, 2002

3 Environment and Society: A Study in Sociology and Environment, Hussein Abdel-Hamid Ahmed Roshwan, Modern University Office, Alexandria, 2006

4 The Arab Novel and the Multiplicity of Cultural References, Abdullah, Alamāt Journal, Issue (23), 2005

[1] الرواية:83

[2] تجليات الواقع والاسطورة في النتاج الروائي لإبراهيم الكوني، عوني الفاعوري، 142

5 The Paratext of the Novel: The Strategy of the Title, Dr. Shu‘ayb Halifi, Al-Karmel Journal, Issue (46), 1998

6 The Importance of Literary Criticism in Critical Studies, Muhammad Abu al-Fadl Badran, Fourth International Conference on the Arabic Language

7 The Rhetoric of Emotions and Environmental Narratives: A Reading in the Beginnings of the Arab Novelistic Discourse, in Environmental Narratives: Towards an Ecocritical Approach to the Arab Novel, Abdelhaq Belaabed, Al-Watad Publishing, 2024

8 Manifestations of Reality and Myth in Ibrahim al-Koni’s Narrative Output, Awni al-Fa‘our

9 The Significance of Memory in the Narrative Text: A Reading in the Semiotics of the Past Tense, Alaa Jabr Muhammad, Al-Mawqif al-Adabi Journal, Issue (675), Damascus, 2002

10 The Image of the Earth in the Novel “Hallawaji Maryam” by Jabali Anisa: The Arabic Novel and the Earth, Dar Nashrati for Electronic Publishing, 2005

11 Accounting for Environmental Pollution, Ibrahim Jaber al-Sayyid, Ghina Publishing and Distribution House, Amman, 2014

12 Dictionary of Novel Criticism Terminology, Latif Zeitouni, Arabic–English, Dar al-Nahār Publishing, Lebanon Publishers, 2002

13 Critical Essays on the Arab Novel, Dr. Moussa Aghribi, Al-Jusoor Publishing House, Oujda, 1st ed., 1997

14 The Epic of the Extreme Borders (Desert Imagination in the Works of Ibrahim al-Koni), Arab Cultural Center, Casablanca, 1st ed., 2000

15 Bleeding of the Stone, Ibrahim al-Koni, Al-Tanweer Publishing, 2nd ed., 1992